القسم الثاني

دعوة سيّدنا محمد ﷺ

ومنهجه فيها ومن دعا إلى الله بعده من الصحابة
والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

- دعوة سيدنا محمد ﷺ . . ومهماتها
- الدعوة في عهد الصحابة وما بعده
- التجديد والمجددون
- الدعوة واللغة العربية
- بين الدعوة و الدعاية

الفصل الأول

دعوة سيدنا محمد ﷺ

لقد أرسل الله سيدنا محمد بن عبد الله العربي إلى العالم أجمع ، وأنزل عليه القرآن رحمة للعالمين .

وكانت المهمات التي جاء من أجلها عديدة ، ويمكن حصرها في خمس :

المهمة الأولى : إصلاح الأوضاع العالمية الفاسدة التي كانت قبل مبعثه .

المهمة الثانية : جمع رسالات السماء في دائرة واحدة متماسكة .

المهمة الثالثة : وفاء عهد الله لفرع إسماعيل كفرع إسرائيل .

المهمة الرابعة : دعوة أهل الكتاب من الضلال إلى الإيمان .

المهمة الخامسة : تتميم مكارم الأخلاق .

وإليك بيان ذلك بالتفصيل :

● المهمة الأولى : إصلاح العالم

لقد طغت الوثنية على التوحيد في كل مكان ، حتى صارت كأنها هي الأصل في الأديان .

أكثر أهل بلاد الفرس والصين من ديار النيران التي كانوا يعبدونها ويقدمون لها أغلى ما لديهم من النفس والنفيس .

وانتشرت عبادة الأجرام السماوية في بلاد اليونان والرومان ومستعمراتها ، واستأثر إمبراطور الروم بعبادة الشمس ، وترك للملأ من قومه عبادة الكواكب الأخرى .

وتفنن العرب في عبادة الأصنام والأوثان ، ونصبوا تماثيل الصالحين من الأسلاف وعبدوها في الحضر ونقلوا معهم أحجار مكة ليطوفوا حولها في السفر كما يطوفون بالكعبة في الحضر .

وأخلد أحبار اليهود إلى الأرض وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، واقتنوا زهرات الحياة الدنيا ، وزخارفها وآثروا الذهب والفضة والجواهر ، ونسوا حظًا مما ذكروا به في التوراة .

وانقطع بعض النصارى إلى الرهبنة التي ابتدعوها ولم تكتب عليهم ، فما رعوها حق رعايتها .

ونصب آخرون منهم تمثال المسيح وأمه وروح القدس في الكنائس وعبدوها من دون الله الواحد القهار .

وهكذا عم الفساد بين العباد في سائر البلاد ، وصار الظلم جائزًا في البر والبحر ، وكان القوي يشبع شهوته في الاستبداد بالرأي ، وأحل الملوك استعباد الرعايا ، وكان الغني يقضي مآربه من استغلال الحرث والنسل ، واستفزاز الفقير ، لا وازع ولا رادع ، ولا شرط ولا قيد ، ولا شريعة ولا قانون يحمي المظلوم .

هكذا كان العالم كله قبل أن يبعث الله محمدًا ﷺ ، رسولاً لينقذ العالم من هذه الموبقات ، وليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط مستقيم .

● المهمة الثانية : جمع رسالات السماء في دائرة واحدة

كان المفروض أن يبعث الله رسولاً واحدًا إلى العالم ، كما كان يبعث إلى الرسل والأنبياء ملكًا واحدًا ، وهو جبريل عليه السلام .

ولكن العقل البشري لم ينضج بعد ، ولم يبلغ ذلك المستوى من الفهم والإدراك ، لذلك كان الله يبعث إلى كل أمة رسولاً مناسبًا للبيئة . قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم:٤) .

ولما استعد العالم لفهم الوحدة الإنسانية ونضج العقل البشري ، وبلغت الحضارة أوجها استعدت الدنيا كلها أن تصير بلدًا واحدًا ، بعث الله محمدًا ﷺ إلى العالم ، وأنزل عليه كتابًا قيمًا يصلح ما فسد من أحوال الأمم ، ويدعو أصحاب الأديان السماوية إلى دين الحق ، وهو دين الإسلام .

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(المائدة:١٥،١٦) .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (المائدة:٦٨) .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(آل عمران:٦٤) .

دعا النبي محمد ﷺ الناس جميعًا إلى عبادة الله وحده ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف:١٥٨) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة:٢١،٢٢) .

دعا النبي محمد ﷺ جميع ملوك الأرض إلى أن الملك كله لله الواحد القهار . لم يجابه النبي إبراهيم ـ أبو الأنبياء صلى الله عليه وعليهم أجمعين ـ غير ملك واحد من الملوك الجبابرة ، وهو نمرود ، ملك الكلدانيين .

ولم يجابه النبي موسى ﷺ غير ملك واحد ، وهو فرعون ملك مصر .

وعدل النبي عيسى عن مجابهة قيصر وقال كما جاء في أناجيلهم الحاضرة : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .

ولما جاء النبي محمد ﷺ واجه ملوك الدنيا جميعًا ، ودعا ملك الروم ، والفرس ، والحبشة ، ومصر ، وسائر ملوك العرب إلى عبادة الله تعالى ، وأعلمهم أن الله تعالى هو مالك الأرض والسموات ، وما فيهما وما بينهما ، وأن بيده ملكوت كل شيء .

وأن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء . كما في عدة آيات كثيرة ، اقرأ منها قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(آل عمران:٢٦) .

فجاءت رسالة النبي محمد ﷺ موسوعة شاملة لسائر الرسالات السابقة ، وكان القرآن الذي جاء به مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه [١] لا يوجد في كتب الأديان السماوية كتاب استوعب أخبار الرسل والأنبياء كما فعل القرآن ، وقد اهتم بأخبارهم تحت عنوان قصص الأنبياء .

لم يهتم اليهود والنصارى بأنبياء غير بني إسرائيل ، وقلما ذكروا في التوراة والإنجيل أسماء أنبياء الأمم الأخرى ، إلا إذا كان لابد من ذكرهم لشدة تعلقهم بتاريخهم ، كسيدنا نوح ، وإبراهيم ، ولوط ، ويقول الأستاذ العقاد : أن الأنبياء العرب المذكورين في التوراة أربعة وهم : ملكي صادق ، وأيوب ، وبلعام ، وشعيب الذي يسمونه يثرون[٢] .

---

(١) أي مصححًا للأخطاء التي نجمت من تحريف المحرفين .

(٢) حقائق الإسلام ص ٦٣ ، ولعل الذي سموه يثرون هو موسى عليه السلام أو الخضر معلمه .

أما النبي هود وصالح وغيرهما فلم يرد ذكرهم في التوراة والإنجيل ، فقد قص الله أخبار هؤلاء الأنبياء من بني إسرائيل وغيرهم في القرآن ، ثم أخبر الله تعالى أنه بعث في كل أمة رسولاً ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(فاطر:٢٤) .

كل ذلك ربط لحلقات الأنبياء جملة في سلسلة واحدة ، وقال بعد إكمال هذه الرسالة : ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

(المائدة:٣) .

● المهمة الثالثة : وفاء عهد الله لفرع إسماعيل كفرع إسرائيل

العرب أبناء إسماعيل إخوة العبرانيين أبناء إسرائيل (يعقوب بن إسحاق) وفي العهد القديم من التوراة المبدلة بقى الكلام على أن الله تعالى وعد لإسماعيل وإسحاق معًا ، حيث قال في سفر التكوين ، (الإصحاح السابع عشر) : وقال إبراهيم لله : « ليت إسماعيل يعيش أمامك! فقال الله : بل سارة امرأتك ، تلد لك ابنًا وتدعو اسمه إسحاق ، وأقيم عهدي معه ، عهدًا أبديًا لنسله من بعده ، وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرًا جدًا ، اثنى عشر رئيسًا وأجعله أمة كبيرة » .

لقد أنجز الله وعده لنسل إسحاق ، إذ جعل فيهم أنبياء وجعلهم ملوكًا وآتاهم ﴿ مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المائدة:٢٠)[1] كما صرح به القرآن .

أما وعد الله لإسماعيل بأنه يباركه ويثمره ، ويكثره ويجعله أمة كثيرة ، فلم يتم إلا بعد ظهور النبي محمد ﷺ .

لقد سكن إسماعيل في برية فاران ، وهي أرض الحجاز ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر .

---

(١) بلفظ : ﴿ وَءَاتَىٰكُم . . . ﴾ .

وكان إسماعيل وأبناؤه يعيشون هناك في شبه انعزال عن العالم ، وكان اليهود يسمونهم أميين .

وقد مكثوا نحو ألفي عام ، ولم يبعث الله فيهم نبيًا واحدا ، على حين أن الأنبياء في بني إسرائيل بلغوا ألوفًا ، كما جاء في إحدى الروايات المنسوبة إلى سيدنا محمد ﷺ .

وقال القرآن : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(الجمعة:٢) .

وقال أيضًا : ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ (يس:١-٦) .

ولقد أصلح النبي ﷺ حالة العرب ، ورفع من شأنهم ، ووحد صفوفهم ، وجمع كلمتهم ، وأظهر دولتهم ، حتى لحقوا بالسابقين من بني إسرائيل وفاقوهم .

● المهمة الرابعة : رد أهل الكتاب من الضلال إلى الهداية

لقد قرر القرآن الكريم أن الله تعالى أنزل على النبي موسى التوراة فيها هدى ونور ، وأنزل على النبي عيسى الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقًا لما بين يديه من التوراة ، ثم أنزل القرآن الكريم مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل ومهيمنًا عليهما ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (المائدة:٤٨).

وقرر القرآن الكريم أن اليهود يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله . قال تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن

يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٧٥) .

وقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة:٧٩) .

لقد نهى القرآن عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، وذلك في قوله : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت:٤٦) .

وفي قوله : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا ﴾ نهى عن مبادرتهم بالجدال في نصوص وطقوس دينهم ، وفي قوله : ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ استثناء يجيز الرد عليهم ، إذا بدأونا بالجدال فليكن الرد عليهم بالتي هي أحسن حتى لا نتعرض لنبيهم ولا لكتابهم ، وفي هذا المعنى حديث : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»[1].

واليهود هم أول من بادأوا النبي محمدًا ﷺ بالجدال ، وذلك لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة صار يستقبل بيت المقدس في صلاته ستة عشر شهرًا ، تأكيدًا للأخوة الدينية بينه وبينهم ، وتأليفًا لقلوبهم ، ولكنهم صاروا يستهزءون به ، ويقولون : إنه يتقرب إليهم بالتدريج ، فجعل النبي ينتظر أمر ربه في توجيهه إلى قبلة معينة ، لهذا قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (البقرة:١٤٤) .

فتحول النبي ﷺ إلى الكعبة ، فصار اليهود ينكرون عليه النسخ والبدل ، فرد عليهم القرآن بقوله : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة:١٠٦) .

---

(١) نص الحديث كما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا » . . . إلخ الآية .

وقوله : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة:١٤٢) .

ومن عنتهم وجدالهم أنهم قالوا : لو جاء النبي محمد ﷺ بمثل المعجزات التي جاء بها موسى لآمنوا ، فرد الله عليهم بقوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ (القصص:٤٨) .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٨٧-٨٩) .

ومن تعنتهم أنهم قالوا : إنهم شعب الله المختار عند الله ، في الدنيا والآخرة ، فرد الله عليهم بقوله : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الجمعة:٦،٧) .

وبقوله : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (المائدة:٦٠) .

أما النصارى فقد جادلوا النبي محمدًا ﷺ على ألوهية عيسى ، أو على كونه ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، وكان يجادلهم بالوحي كما في القرآن : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾
(المائدة:١٧-١٨) .

وقوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران:٥٩) .

ورد القرآن على النصارى في مسألة صلب المسيح بقوله : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۞ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾
(النساء:١٥٧-١٥٨) .

● المهمة الخامسة : تتميم مكارم الأخلاق

من المهمات التي بعث الله نبيه محمداً ﷺ لتكميلها ، مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب التي أدبه الله بها في القرآن ، وجعل فيه : ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب:٢١) .

قال النبي عليه الصلاة والسلام : « أدبني ربي فأحسن تأديبي »[1] قال هذا لتفسير ثناء القرآن عليه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم:٤) .

قال رسول الله ﷺ : « مكارم الأخلاق عشرة : تكون في الرجل ولا تكون في ابنه ، وتكون في الابن ولا تكون في الأب ، وتكون في العبد ولا تكون في سيده ، يقسمها الله لمن أراد به السعادة : صدق الحديث ، وصدق البأس ، وإعطاء السائل ، والمكافأة بالصنائع ، وحفظ الأمانة ، وصلة الرحم ، والتذمم للجار . والتذمم للصاحب ، وإقراء الضيف ، ورأسهن الحياء »[2] .

وثبت في السير أنه لما أتى بسبايا طيئ ، وقعت جارية في السبي ، فقالت : يا محمد ﷺ إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب ، فإني بنت

---

(١) رواه ابن السمعاني في أدب الإملاء عن ابن مسعود .

(٢) رواه الحكيم والبيهقي عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها .

سيد قومي ، وإن أبي كان يحمي الذمار ، ويفك العاني ، ويشبع الجائع ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط . . أنا ابنة حاتم الطائي .

فقال رسول الله ﷺ : « يا جارية ، هذه صفة المؤمنين حقًا ، لو كان أبوك مسلمًا لترحمنا عليه خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، وإن الله يحب مكارم الأخلاق » .

وإذا كانت مكارم الأخلاق تنتهي عند حدود ما ذكرت الجارية أو الحكيم ، فإن النبي عليه الصلاة والسلام الذي جاء ليتمم مكارم الأخلاق قد أوصلها إلى نحو أربعين ، كما أورد الغزالي في الإحياء عن معاذ بن جبل : « أن الله حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ومن ذلك : حسن المعاشرة وكرم الصنيعة ، ولين الجانب ، وبذل المعروف ، وإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، وعيادة المريض المسلم برًّا كان أو فاجرًا ، وتشييع جنازة المسلم ، وحسن الجوار لمن جاورت : مسلمًا كان أو كافرًا ، وتوقير ذي الشيبة ، وإجابة الطعام ، والدعاء عليه ، والإصلاح بين الناس ، والجود ، والكرم ، والسماحة ، والابتداء بالسلام ، وكظم الغيظ ، والعفو عن الناس ، واجتناب ما حرمه الإسلام من اللهو والباطل ، والغناء والمعازف كلها ، واجتناب كل ذي وتر ، وكل ذي دخل ، والغيبة ، والكذب ، والبخل ، والخديعة ، والنميمة ، وسوء ذات البين ، وقطيعة الأرحام ، وسوء الخلق ، والتكبر ، والاختيال ، والاستطالة ، والبذخ ، والفحش ، والتفحش ، والحقد ، والحسد ، والطيرة ، والبغي ، والعدوان ، والظلم » .

ومثله ما رواه البيهقي في الزهد ، وأبو نعيم في الحلية : قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : أوصاني رسول الله ﷺ فقال : « يا معاذ ، أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجار ، ورحمة اليتيم ، ولين الجانب ، وبذل السلام ، وسنن العمل ، وقصر الأمل ، ولزوم الإيمان ، والتفقه في القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وخفض الجناح .

وأنهاك : أن تسب حكيمًا ، وتكذب صادقًا ، أو تطيع آثمًا ، أو تعصى إمامًا عادلاً ، أو تفسد أرضًا .

وأوصيك : باتقاء الله عند كل حجر ، وشجر ، ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة : السر بالسر ، والعلانية بالعلانية» .

فقد اهتم القرآن بآداب المعاشرة مع الفرد ، والجماعة ، والدولة ، ورجالها ، وأنزل فيها آيات في سورة النور ، وفي الحجرات ، وفي مختلف السور .

كل ذلك : تكميل وتتميم لمكارم الأخلاق التي جاء بها النبي محمد ﷺ .

● منهج سيدنا محمد ﷺ في الدعوة

أما منهج سيدنا محمد ﷺ في الدعوة إلى الله ، فيشمل سائر مناهج الأنبياء الذين تقدم ذكرهم وذكر منهجهم ، ثم يزيد النبي ﷺ عليهم في كل ما ذكرنا بما يأتي :

أولاً : الدعوة بمكارم الأخلاق .

ثانيًا : الدعوة على بصيرة .

ثالثًا : الدعوة بالحكمة .

رابعًا : الدعوة بالموعظة الحسنة .

خامسًا : الدعوة بالجدال بالتي هي أحسن .

وأخيرًا تفويض أمر المدعو إلى الله الذي ﴿ **هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ** ﴾ (النجم:٣٠) .

أما الدعوة بمكارم الأخلاق ، فقوامها من القرآن الكريم ما خوطب به النبي ﷺ من قوله تعالى : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ (آل عمران:١٥٩) .

أما الدعوة على البصيرة ، فعمادها من القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف:١٠٨) .

أما الدعوة بالحكمة فنصها الموجه إلى النبي ﷺ في قوله : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل:١٢٥) .

ونستنبط من هذه الآية وحدها ثلاثة مناهج وهي :

الدعوة بالموعظة الحسنة .

والدعوة بالجدال بالتي هي أحسن .

والدعوة بالحكمة .

أما الدعوة بالحكمة فعلى مثل ما سبق لجميع الأنبياء والمرسلين ، الذين خلوا من قبل ، فما من نبي إلا وقد أوتي الحكمة المناسبة لبيئته ورسالته .

أما الحكمة المناسبة لبيئة سيدنا محمد ﷺ فهي واضحة في سنته وأحاديثه ، لهذا فسر العلماء الحكمة في قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ (الأحزاب:٣٤) بالسنة الفعلية والقولية ، فالأحكام أو الآداب الشرعية التي جاءت في القرآن والحديث ، تسمى حكمة ، من ذلك قوله تعالى بعد ذكر الأوامر والنواهي الشرعية في سورة الإسراء : ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ (الإسراء:٣٩) .

والأمثال التي جاءت في القرآن والحديث تسمى حكمة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم:٢٤-٢٦) .

ومثل ما جاء في الحديث من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « مثل القائم على حدود الله كمثل قوم ركبوا في سفينة واقتسموا أماكنهم ، فأخذ رجل منهم الفأس يضرب مكانه ، فقالوا : ما تفعل ؟ فقال : مكاني ونصيبي ! ! أفعل فيه ما أشاء ، فإن تركوه غرق وغرقوا ، وإن أخذوا على يده نجا ونجوا »[1].

أما الدعوة بالموعظة الحسنة ، فهي : ما يكون على طريق القصص المسلية ، كقصة سيدنا يوسف التي سماها الله أحسن القصص في قوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (يوسف:٣) .

ويلحق بها ما يكون على الحكايات المؤثرة في النفوس كحكايات الأولياء والصالحين الذين يُقتدَى بهم في صلاحهم وتقواهم .

أما الجدال بالتي هي أحسن ، فهو مناظرة المعارض لإظهار الحق المعلوم .

إن البسطاء لا يجادلون إطلاقًا ، وإنما يجادل العقلاء والعلماء ، الذين سبق أن أشربت في قلوبهم عقيدة أو نظرية ، لذلك جاء القرآن يبين طريقة دعوة العلماء من كل ملة ، حيث قال : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت:٤٦) .

وقال في دعوة المسلمين بعضهم بعضًا : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ (الإسراء:٥٣،٥٤) .

---

(١) وللحديث نص آخر : « مثل القائم على حدود الله والمداهن فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها ، وأصاب بعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقال الذين في أعلاها : لا ندعكم تصعدون فتؤذونا ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا؟ فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا ». (رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي عن النعمان بن بشير) .

وقوله : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت:٣٤) .

تأمل توارد جملة {التي هي أحسن} في مختلف الآيات الأربع ، وكلها تابعة للدعوة بالتي هي أحسن أو الجدال بالتي هي أحسن .

ومن الجدال بالتي هي أحسن : الاعتدال وعدم الاعتداء ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:٨) .

● الله أعلم بمن ضل ومن هدى

هذه حقيقة نبه الله عليها رسوله محمدًا ﷺ بوجه خاص ، بعد أن علمه أساليب الدعوة ومناهجها ، أرشده إلى تفويض أمر الهداية والغواية إليه تعالى ، كما أشار إلى هذه الحقيقة في الآيات الآتية ، منها قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص:٥٦) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٩٩) .

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوسف:١٠٣) .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف:٦) .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل:١٢٥) .

وقوله : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ (النجم:٣٢) .

● كيف بدأ النبي في الدعوة إلى الله

ولما تحقق النبي ﷺ أنه مبعوث من الله ، ومرسل إلى الناس ، ونزلت الآية الكريمة التي تقول : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (الشعراء:٢١٤-٢١٦) .

بهذه الآية أمر الله رسوله أن يقوم بالدعوة إلى الله ، وأن يبدأ بأهله وعشيرته وأصدقائه ، فدعا النبي أولاً : زوجته خديجة ، فأسلمت ، وأسلم زيد بن حارثة غلامه ، وأسلم علي بن أبي طالب ، وكلهم من آل بيته .

ثم جمع النبي عشيرته بالحكمة ، على العادة المألوفة للكرماء من العرب ، وهي الدعوة إلى الطعام ، فدعا عشيرته إلى الطعام في بيته ، فاجتمعوا وهم ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، فأكلوا وشربوا وشبعوا ، ولم يقل لهم شيئًا في هذه المرة .

ثم دعاهم مرة ثانية كذلك ، واستطابوا الطعام ، ورجعوا مسرورين ، ثم دعاهم ثالثة ، فلما فرغوا قام فيهم خطيبًا وقال لهم : «ما أعلم إنسانًا في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني ربي أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وأنتم الأقربون من قريش ، وإني لا أملك لكم من الله حظًا ، ولا من الآخرة نصيبًا ، إلا أن تقولوا : «لا إله إلا الله» فأشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم العرب ، فتذل بها العجم ، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟» .

فقال عبد العزى المكنى «أبا لهب» ـ وهو أحد أبناء عبد المطلب : «تبًّا لك سائر هذا اليوم ، ألهذا جمعتنا»!؟

وارتج على محمد ﷺ لما سمع من عمه هذا القول ، فكناه علي ابن أبي طالب «أبا لهب» ، فما لبث أن جاء الوحي يقول : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد:١) إلى آخر السورة .

● التعارف والصداقة طريق السابقين إلى الإسلام

بدأ النبي ﷺ يدعو كل من توسم فيه الخير من معارفه الذين كانوا في الجاهلية أصدقاءه فبدأ أولاً بدعوة أبي بكر الذي كان صديقًا له من أيام الصبا ، فكانت هذه الصداقة سببًا لقبول أبي بكر الدعوة بالسهولة واليسر ، قرأ النبي شيئًا من القرآن على أبي بكر ، فأسلم ولم يتردد ، لذلك جاء في ثناء النبي

عليه إذ قال : «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر ، إلا أبا بكر : ما لبث حين ذكرته ، فاستجاب وما تردد ، ثم إنه واساني بنفسه وماله» .

وإنما استجاب أبو بكر ، لأنه كان يعرف صديقه محمدًا ﷺ صادقًا ، أمينًا ، لم يجرب عليه كذبًا قط .

ثم قام أبو بكر بدعوة الآخرين ، إذ كان محبوبًا في قومه ، فكانت الصداقة أيضًا سببًا لقبول عدد منهم الدين الجديد .

فأجابه عثمان بن عفان (الأموي) والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله (التيمي) ، وأبو عبيدة (عامر بن الجراح) ، وأبو سلمة (عبد الله بن عبد الأسد) ، والأرقم ابن أبي الأرقم ، وعبد الله بن مسعود ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وسعيد ابن زيد (زوج فاطمة أخت عمر) .

وكان النبي ﷺ يجتمع بهم ويعلمهم القرآن في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، طوال ثلاث سنين ، إلى أن أمره الله بالجهر بالدعوة ، بعد إسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب .

أما إسلام عمر فقد كان النبي ﷺ يدعو بقوله : «اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : عمر بن الخطاب ، أو عمرو بن هشام» فأجاب الله دعوته في عمر ، فسمع عمر القرآن من سعيد بن زيد ، فرق له قلبه ، فأتى النبي ﷺ في دار الأرقم ، فتلقاه النبي ، فأخذ بجمع قميصه ، فقال له : «أسلم يا ابن الخطاب ، اللهم اهده» ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فكبر المسلمون تكبيرة سمعها أكثر أهل مكة .

● القرآن وتأثيره بألفاظه ومعانيه

كان النبي ﷺ إذا دعا إنسانًا إلى الإسلام تلا عليه القرآن ، وكان يدعو أولاً إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأوثان والأصنام ، ويأمره بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، وصلة الرحم ، والأمانة ، ثم تلا عليه ما تيسر من القرآن .

وكان القرآن يأخذ بمجامع قلب سامعه ، لأنه معجز لفظًا ومعنى ، لذلك قال النبي ﷺ : « ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما على مثله آمن البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة »[1] .

ولقد تأثر به النجاشي حين استمع إلى جعفر بن أبي طالب (في صدر من سورة مريم) وفيه حديث ميلاد المسيح ، فقال النجاشي : « إن هذا والذي جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة » .

وتأثر بسماعه عتبة بن ربيعة حين سمعه وقال لقومه : « إني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا الكهانة » .

ولما سمع الوليد بن المغيرة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٩٠) قال : « والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر » .

وتأثر بسماعه الجن ، فقالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ (الجن:١،٢) .

فعلى الدعاة أن يتخذوا القرآن أداة هامة لدعوتهم إلى الله ، فإن معجزته في الأخذ بمجامع القلوب لا يقتصر على السامعين من العرب ، بل تأخذ معانيه ألباب السامعين من العجم أيضًا ، فهو معجزة النبي ﷺ الخالدة كما جاء في الصحيحين : « ما من الأنبياء إلا من قد أوتي ما على مثله آمن البشر وإنما الذي أوتيته وحيًا يوحى إليَّ ، وأرجو أن أكون أكثرهم تبعًا يوم القيامة » .

قال البوصيري :

دامت لدينا ففاقت كل معجزة ... من النبيين إذ جاءت فلم تدم

---

(١) متفق عليه ورواه الإمام أحمد عن أبي هريرة .

● **تتبع المجتمعات لتبليغ الدعوة بعد الجهر بها**

نزل الوحي بقوله تعالى : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ (الحجر:٩٤،٩٥) .

بذلك قام النبي ﷺ وصعد على الصفا ، ونادى بأعلى صوته قائلاً : «يا معشر قريش» قالت قريش : محمد ﷺ على الصفا يهتف ، وأقبلوا عليه يسألون : ما له ؟ قال : «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، أكنتم تصدقون» ؟ قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذبًا قط . قال : «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة ، يا بني مخزوم ، يا بني أسد : إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيبًا ، إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله» فلم يجيبوا بخير .

ثم بدأ النبي يتبع الحاج في أسواق عكاظ ، أو مجنة ، أو ذي المجاز ، يسأل عن القبائل ومنازلهم ويدعوهم إلى الإسلام وكلمة التوحيد ، ويطلب أن ينصروه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة ، فلا يجد أحد ينصره ، ووراءه عمه أبو لهب يقول : إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فلقي النبي ﷺ من تكذيبه أذى كثيرًا ، منهم من يستهزئ به ومنهم من يرميه من ورائه .

● **جواز طلب الحماية للدعوة**

كان رسول الله ﷺ عند بدء الدعوة في حماية عمه أبي طالب وزوجته خديجة ، فلم يتمكن الأعداء من الاعتداء عليه ، بحكم عادة العرب في الجوار والنسب ، ولما مات عمه ، ثم ماتت زوجته في السنة العاشرة من البعثة ، رأى رسول الله أن لابد من الاستيجار بقوي شريف ، حتى يؤدي رسالته حق الأداء ، فذهب إلى الطائف ، وقابل أشرافهم من بني ثقيف ، ودعاهم إلى الإسلام ونصرته في القيام بالدعوة إلى الله ، فكان ردهم قبيحًا ، فخرج إلى مكة وأرسل إلى مطعم بن عدي أنه يدخل في جواره قبل دخول مكة ، فأجابه مطعم ، فتوجه إلى الكعبة مسلحًا وأعلن حمايته للنبي ﷺ على ملأ من قريش .

● **ما يُستفاد من هذا الدرس**

أولاً : إذا كان الداعي إلى الله فردًا جاز له أن يتحصن بالحماية التي تؤازره ليتقوى ، وإذا تكتل الدعاة ، وتكونت منهم هيئة على شكل نقابة استطاعوا أن يدافعوا عن أنفسهم لتبليغ رسالة ربهم ، فلا داعي للركون إلى دولة أو حكومة لا تؤمن بالدعوة .

ثانيًا : لا بأس للداعية في حالة الضعف أن يستجير بشخص أو جماعة أو دولة غير مسلمة ، فلقد كان النبي ﷺ يحتمي بعمه أبي طالب ، وهو غير مؤمن بما جاء به ، ولكنه لم يعارضه في تبليغ حمايته .

وقد التجأ المسلمون إلى ملك الحبشة قبل إسلامه ـ إذا قيل بإسلامه .

وانتهز النبي يوسف ﷺ فرصة هذه الحماية لدعوته حين قال لفرعون مصر : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٥٥) .

ولم يذكر القرآن أن فرعون مصر هذا قد أسلم على يد يوسف ، ولكنه مكنه في الأرض لتبليغ الدعوة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ (يوسف:٥٦) .

● **الدعوة بين الاستقلال والالتجاء**

لقد تبين من استعراض دعوة الرسل أن الملوك والأشراف هم الذين كانوا يعارضون دعوة الأنبياء والمرسلين والصالحين من المؤمنين .

وظل الملوك والرؤساء في كل زمان ومكان ، يقفون حجر عثرة في سبيل الدعوة إلى الله ، بل في سبيل إصلاح مرافق الحياة في المجتمع البشري .

وإذا استثنينا الدول التي قامت على أساس الدين في بعض البلاد العربية (في المغرب والسودان والسعودية) وبعض البلاد الإسلامية كنيجيريا ، فلا يوجد الاتفاق بين الدعاة والملوك إلا قليلاً .

ولأمر ما لم يبعث الله عبدًا رسولاً إلى الناس : إما لصون كرامته عند المدعوين وحمايته ، وإما لتمام استقلاله من نير العبودية لغير الله .

ولم يكن النبي يوسف موظفًا تحت فرعون مصر ، وإنما كان رئيس دولة ، بمنزلة رئيس الوزراء ، الذي بيده الحل والعقد ، فتمكن بذلك من نشر دعوة التوحيد إلى جانب وظيفة الدولة ، ولقد كانت الدعوة غاية الدولة الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين ، ثم صارت جزءًا من الدولة أيام الخلفاء الأمويين الذين أنزلوا القصاصين والأدباء والشعراء مكان العلماء والفقهاء والوعاظ .

ومن هنا بدأت الدعوة تستقل تدريجيًا عن الدولة ، فصار الدعاة يعارضون الخلفاء والأمراء بنصائحهم المريرة ، وصار الخلفاء والأمراء يضطهدون أولئك الدعاة ، بشتى أنواع الاضطهاد ، فظهر التنازع بين الطرفين واضحًا ، بل صارت الدولة حربًا على الدعوة ، هذه شر بدعة أحدثها الخلفاء الأمويون ، ثم ورثها منهم العباسيون ومن بعدهم إلى يومنا هذا ، كما سيأتي في محله .. إن شاء الله .

● تضحية الرعيل الأول في الإسلام

أحست قريش بتغلغل الإسلام في مجتمعهم ، يدخل فيه أبناؤهم ونساؤهم ، فاتفقوا على أن يحاولوا إيقاف انتشار الإسلام بمختلف الوسائل ، باضطهاد النبي ﷺ صاحب الدعوة أولاً ، ثم بالمؤمنين به ، وإيذائهم بكل أنواع الأذى ، فقامت كل قبيلة بإرغام من دخل في الإسلام من أبنائها ، على الرجوع منه إلى دين آبائه (الوثنية) .

فصاروا يتفننون في إيذائهم وتعذيبهم : بالضرب ، والتجويع ، والتعطيش :

١- لجأت قريش إلى مقاطعة آل بني هاشم وبني عبد المطلب ، أن لا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم ، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعون منهم ، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة ، وأقاموا على تلك الحال ثلاث سنين ، لا يصلهم الطعام إلا خفية بالليل سرًا ، إلى أن قام أشراف من قريش ، وعلى رأسهم المطعم بن عدي بنقض الصحيفة ، فوجدوا أن الأرضة قد أكلتها ، كما سبق أن أخبر النبي ﷺ عمه بذلك .

٢- وكان بنو مخزوم يخرجون عمار بن ياسر وأمه وأباه إذا حميت الظهيرة ، يضعونهم في الرمضاء ويطعنونهم بالحديدة المحماة ، فيمر بهم النبي ﷺ ويقف برهة يقول : « صبرًا يا آل ياسر فإن موعدكم الجنة » .

٣- فقأ أبو جهل عين أمته « زنيرة » فاشتراها أبو بكر ، ثم رد الله إليها بصرها بدعاء النبي ﷺ .

٤- تفنن أمية بن خلف في تعذيب عبده « بلال بن رباح الحبشي » فاشتراه أبو بكر وأعتقه لوجه الله تعالى ، فاتخذه النبي ﷺ مؤذنًا للصلاة فيما بعد ، تقديرًا لإيمانه واحتماله الأذى وصبره على البلاء في سبيل الله الواحد القهار .

٥- قام أبو بكر يومًا يدعو إلى الإسلام ، فتجمعت عليه قريش وأوسعوه ضربًا موجعًا حتى سقط مغشيًا ، فحمله قومه بنو تيم إلى داره ، ولم يفق إلا في آخر النهار .

٦- حبس الحكم بن أمية أخاه عثمان أيامًا وجوعه وضربه ، فأعياه الضرب ، ثم طرده من منزله لعدم رجوعه إلى دين الكفر .

● بلوغ الدعوة إلى يثرب ، وأول مبعوث إليها

جاء وفد من الأوس إلى قريش يطلبون محالفتهم على الخزرج ، لما بينهم من الحروب الداخلية ، فلما علم النبي ﷺ بمقدمهم أتاهم ، وقال لهم : « أنا رسول الله ، بعثني إلى الناس لأدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وأنزل عليَّ الكتاب » ، وتلا عليهم شيئًا من القرآن ، ولكنهم لم يستجيبوا حتى انصرفوا إلى يثرب وفي قلوبهم أثر ما سمعوا .

وفي العام القابل أتى ستة من الخزرج ، فجاءهم رسول الله ﷺ كعادته ، فدعاهم إلى الإسلام فأجابوه وصدقوه ، ولما رجعوا إلى بلادهم أخبروا قومهم فصادف ما قد سبق في الأوس ، فانتشر خبر الإسلام حتى لم يبق دار من دورهم إلا وفيها خبر الإسلام .

وفي العام الثالث أتى اثنا عشر رجلاً ، فالتقى بهم النبي ﷺ في العقبة ، فبايعوه على الإسلام وحمايته ، وفي العام الرابع أتوا ـ وهم سبعون ـ وطلبوا إلى النبي ﷺ أن يهاجر إليهم ليتمكن من نشر دعوته ، فبعث معهم النبي ﷺ مصعب بن عمير ليعلمهم الإسلام ، ويقرءهم القرآن ، ويفقههم في الدين ويؤمهم في الصلاة ، وقد أسلم على يديه أشراف يثرب ، منهم : أسيد ابن حضير ، وسعد بن معاذ ، من الأوس ، وكان مصعب بن عمير أول من سمى مقرئًا ، فتبعه بعض المهاجرين إلى يثرب ، ثم هاجر عمر بن الخطاب ، ثم هاجر النبي ﷺ بصحبة أبي بكر ثم بقية الصحابة المهاجرين فاستقبلهم أهل يثرب بالحفاوة والتكريم ، وعرفوا بالأنصار ، ونزلت الآية في التنويه بهم في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر:٩) .

فقد أكرم الأنصار إخوانهم المهاجرين ، حتى صاروا مضرب المثل في التعاون وحسن الخلق ، وكذلك يجب أن يكون المسلمون فيما بينهم دائمًا .

● الهجرة فرار بالدين وليست فرارًا بالنفس

لقد علمت أن كل قبيلة من قبائل قريش قد تحالفت على تعذيب كل من دان بالإسلام ، وكل من أجار مسلمًا ، ليفتنوا المسلمين في دينهم ، وليردوهم كفارًا مشركين ، حتى بني هاشم الذين هم رأس قبائل قريش ، لم تنفعهم رئاستهم في هذا الموقف ، ولم تنجهم من الاضطهاد ، ولم يقدر النبي ﷺ على حماية أصحابه مما يقاسونه من ألوان العذاب .

قال تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

(البروج:٨) .

لهذا قال قول القائد المشفق على أتباعه : « لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه » .

فكانت الهجرة الأولى في الإسلام مكونة من عشرة رجال ، وأربع نسوة ، ولم يزل المسلمون يهاجرون إلى الحبشة حتى بلغوا ثلاثة وثمانين رجلاً ، وسبع عشرة امرأة .

ولما وصلوا الحبشة أكرمهم النجاشي وآواهم ، وظلوا بها يمارسون شعائر دينهم في أمن وسلام ، وفي غير خوف ولا وجل .

ولقد سبق أن الهجرة من مكان إلى مكان لتمكين الدعوة كانت من سنن الأنبياء وقد هاجر أبو الأنبياء إبراهيم ، وهاجر موسى من مصر إلى مدين ، وهاجر عيسى مع أمه من فلسطين إلى مصر ، قبل أن يعود إليها حين بلغ أشده .

ولما اشتد أذى قريش على النبي ﷺ وأصحابه ، وشاء الله أن يشرح صدور أهل يثرب بالإسلام ، فأسلموا : طلبوا من النبي ﷺ وأصحابه أن يهاجروا إليها ، فهاجر الفوج الأول من الصحابة إلى يثرب كما سبق .

ثم لحق بهم النبي ﷺ ، وصاحبه أبو بكر ، فلقيهم أهلها بالحفاوة البالغة والتكريم المنقطع النظير .

فسميت يثرب من ذلك الوقت «مدينة الرسول»[1] ومنطلق الدعوة ، والعاصمة الأولى للدولة الإسلامية ، فكانت الهجرة فتحًا جديدًا للتاريخ الإسلامي إلى يومنا هذا .

● أعمال النبي ﷺ في دار هجرته وأساليب دعوته

أول ما فعله النبي ﷺ بعد وصوله المدينة لتمكين الدعوة وتأمين الدعاة ، شراؤه أرض المسجد من أصحابها بعشرة دنانير مجموعة من تبرعات أصحابه.

---

(١) ولذلك ورد حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن البراء : « من سمى المدينة يثرب ، فليستغفر الله : هي طابة ، هي طابة » وأظن ـ والله أعلم ـ أن « يثرب » من التثريب ، وهي المؤاخذة واللوم ، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن هذا الاسم ، لأنه لا تثريب على من هاجر إليها مؤمنًا . والله أعلم .

ثم بناء هذا المسجد الشريف ، ليكون « برلمانًا للشورى » يجمع المسلمين ، و« جامعة » لتعليم أمور الدين والدنيا ، و« محكمة » للقضاء ، و« نزلاً » للغرباء ، ومكانًا للصلاة .

وفرضت صلاة الجمعة لجمع شمل المسلمين كل أسبوع ، وجعل الخطبة ركنًا هامًا من أركان الجمعة يرشدهم فيها إلى ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم ، ويهديهم ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويعظهم لعلهم يذكرون .

يخطبهم في الجمع ، وفي العيدين ـ عيد الفطر وعيد الأضحى ـ وفي كل حدث تاريخي .

وإذا جد أمر ، أمر بلالاً ينادي : « الصلاة جامعة » ، فإذا اجتمع الناس رقى المنبر وخطب .

ثم إذا صلى الفريضة وأراد أن يرشد الناس إلى ما ينفعهم أقبل عليهم بعد الصلاة وأرشدهم إلى ما يريد لهم من الخير أو ينذرهم عنه من الشر .

وكان النبي ﷺ يستقبل الوفود في مسجده ويجيب على الأسئلة التي يوجهها إليه أصحابه من أمور الدين والدنيا ، ويعظهم وينصحهم .

وكان النبي ﷺ إذا صلى العيد ذهب إلى صفوف النساء فوعظهن وأمرهن بالصدقة ، فيبسط بلال ثوبه فترمي كل امرأة فيه صدقتها .

وجاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ذهب الرجال بحديثك ، لو جعلت لنا من نفسك يومًا نأتك فيه تعلمنا مما علمك الله ؟ فقال رسول الله : « اجتمعن يوم كذا وكذا » ، فأتاهن رسول الله ﷺ فعلمهن مما علمه الله .

● ما يُستفاد من هذا الدرس

ولقد علمنا من هذه السيرة النبوية الكريمة أن النبي ﷺ كان يخصص النساء بالوعظ بعد صلاة العيد كما كان يخصص لهن يومًا لتعليم أمور الدين والدنيا معًا .

فعلم من ذلك وجوب تعلمهن أمور الدين والدنيا معًا .

ولقد تعلمت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ حتى صارت إحدى رواة الحديث المكثرين عن رسول الله ﷺ وحتى قال فيها النبي : «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» .

ولقد نبغت عدة نساء مسلمات في مختلف العصور ، وفي شتى العلوم الإسلامية .

فتعليم المرأة وتعلمها أمور الدين والدنيا واجب في شريعة الإسلام ، وكذلك وعظها وتعليمها غيرها .

● عناية النبي ﷺ بمصالح أمته في المدينة

كانت عناية النبي ﷺ بمصالح أمته أكبر وأعظم من عناية أي قائد أو زعيم[1] .

وأول ما فعله هو تأليفه بين المهاجرين والأنصار ، حيث آخى بين كل اثنين من المهاجرين والأنصار .

فكان سيدنا أبو بكر ممن اقتطع له أخوه أرضًا بالسنح ، يزرع فيها .

وكان سيدنا عبد الرحمن بن عوف ممن أرشده أخوه إلى السوق ، فأخذ يتاجر فيها حتى أثرى .

هكذا فعل النبي ﷺ للسابقين إلى الهجرة .

أما الذين تأخروا في اللحاق بهم فلم يتمكنوا من الحصول على ما حصل عليه السابقون ، فبنى لهم النبي ﷺ مكانًا في مؤخر مسجده ، فسمى المكان «صفة» وكان يأوى إليها كل من لا أهل له ولا مال ، فيجعل لهم النبي ﷺ

---

(١) قال عروة بن مسعود ـ حين وجهته قريش عام الحديبية ـ لما رجع إلى قريش : «يا معشر قريش ، إني جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكًا قط في قوم قط مثل محمد في أصحابه» (الشفا : المجلد الثاني : علامة محبته ﷺ) .

نصيبًا من الزكاة والصدقات والهبات حتى يجعل الله لهم سبيلاً إلى المعيشة الكريمة ، أو منزلاً يأوون إليه ، وكان أهل الصفة قد بلغوا أربعمائة : يتعلمون القرآن ، ويصومون ، ويخرجون مع النبي ﷺ إلى الغزوات ، وكان النبي ﷺ يدعوهم إلى العشاء معه بالليل أو يفرقهم على أصحابه ليتعشوا معهم في منازلهم ، وكان يقول : «طعام الواحد كافي الاثنين ، وطعام الاثنين كافي الأربعة ، وطعام الأربعة كافي الثمانية»[1].

وفي أهل الصفة نزلت الآية الكريمة : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٧٣) .

وألف النبي ﷺ بين الأوس والخزرج (القبيلتان اللتان كانتا متنازعتين قبل الإسلام) ، كما ألف بين سكان ما حول المدينة حتى اطمأن الجميع إلى بعضهم بعضًا .

وكتب لليهود كتابًا اشترط لهم وعليهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، فعل كل ذلك ليتمكن المسلمون من أداء عبادة ربهم وتبليغ رسالته .

● هل انتشر الإسلام بالسيف ؟

يظن بعض من ليس له عمق في النظر والفكر أن الإسلام قد انتشر بالسيف ، لأن المسلمين بعد استقرارهم بالمدينة المنورة ، قاموا بالحروب الهجومية على مخالفيهم ، فقامت بذلك سلسلة من الغزوات التي انتصر فيها المسلمون ، فاستطاعوا بها نشر الإسلام بالقوة !! ففي هذا الكلام مغالطة .

والواقع أنه لا شك أن الانتصارات المتتابعة للنبي ﷺ وأصحابه في الغزوات التي قامت بين المسلمين من جانب والمشركين واليهود والنصارى من جانب

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن جابر بن عبد الله .

آخر قد أدخلت الرعب في قلوب الأعراب في الجزيرة العربية ، وفي قلوب الأمم المجاورة ، وجعل الناس يدخلون في دين الله أفواجًا ، لا شك في ذلك ، كما لا شك في أن الإسلام شرع القتال لإعلاء كلمة الحق ، لقوله تعالى : ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٧٤-٧٦) .

وفي الحديث : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها »[1] .

وفيه أيضًا : « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات ميتة جاهلية »[2] .

كل ذلك قد كان ولكنه أمر ثانوي في منهج الدعوة وأساليب تبليغها ، إذ لو ترك الكفار الدعوة والدعاة ولم يتعرضوا لها ولا لحياة الدعاة ، لما شرع القتال .

وليت من لم يكن بالحق مقتنعًا ... يخلي السبيل ولا يؤذي من اقتنعا

وإنما شرع القتال للدفاع عن النفس وتأمين حياة الدعاة ، ليتمكنوا من عبادة الله ودعوة الآخرين إلى عبادة الله .

---

(١) رواه البخاري وأحمد والترمذي عن سهل بن سعد .

(٢) وفي حديث آخر : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من نفاق » رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة .

وإذا كان رد فعل القتال قد أسفر أخيرًا عن انتشار الإسلام ، فليس القتال في مبدأ الأمر أسلوبًا لنشر الدعوة بالقهر والقوة .

ولذلك نعتقد أن الذين ينشرون العقيدة أو الدعوة الإسلامية بالشدة والعنف والقوة والقهر ليسوا على الحق ، إنما الدين يسر وعفو وتسامح وتودد .

• كيف بدأ القتال في الإسلام ؟

لبث النبي ﷺ ثلاثة عشر عامًا بمكة المكرمة يدعو قومه إلى عبادة الله وحده ، ونبذ الأوثان والأصنام ، فتعرض من أجل هذه الدعوة ـ هو ومن آمن به ـ لأنواع الأذى حتى اضطروهم إلى مغادرتهم وطنهم ، ولما شعر المشركون بهجرة المسلمين صاروا يقتفون آثارهم ليدركوهم في الطريق ، ليقتلوهم وليسلبوا أموالهم .

وقد طردوا كثيرًا من المسلمين من ديارهم ، واستولوا على أموالهم وعقارهم ، ولما علموا باستقرارهم في المدينة ، وأنهم صادفوا أهلاً ، ووطئوا سهلا هناك ، لم يطيبوا نفسًا أن يتركوهم أحرارا ، بل استعدوا للهجوم عليهم ، لذلك أذن الله للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم .

وأول آية نزلت في القتال صرحت بأنه إنما شرع للدفاع عن النفس ، وعن الدعوة لقوله تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (الحج:٣٩-٤١) .

وقد كره المسلمون القتال في أول أمرهم حتى نزلت آيات تحرضهم على ذلك ، منها قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن

تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢١٦) .

وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال:٦٥،٦٦) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ (النساء:٧٥) .

ولما كان من طبيعة القتال : الهزيمة ، والشهادة ، والنصر ، والغنيمة ، أنزل الله آيات بأحكام الأمرين ، وقال في جزاء الهزيمة والشهادة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة:١١١) .

وقال في آية أخرى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(آل عمران:١٦٩-١٧١) .

وشرع أحكام الغنيمة والأسر بقوله : ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ (الأنفال:٤١) .

وفي الأسرى قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنفال:٦٧) .

وفي آية أخرى قال : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (محمد:٤) .

ورغب في تحرير العبيد ترغيبًا عظيمًا ، وجعله كفارة للكبائر من الذنوب ، قال : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ (النساء:٩٢) .

وقال أيضًا : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ (المجادلة:٣) .

وقال أيضًا في كفارة اليمين : ﴿ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ (المائدة:٨٩) .

وشرع حسن المعاملة مع المقاتلين بقوله : ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ (الأنفال:٦١) [1].

وفي آية أخرى قال : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (الممتحنة:٧-٩) .

---

(١) يقال : جنحت السفينة إلى الشاطئ إذا دفعتها الأمواج ، وبهذا يكون المعنى ـ والله أعلم بمراده ـ : إذا دفعتهم أمواج الغلبة والقهر لأن يطلبوا منك السلام إبقاء على حياتهم ، فسالمهم .

• الجهاد وأنواعه وشروطه

الجهاد لغة هو : بذل الجهد والطاقة ، وشرعًا : هو بذل النفس والنفيس في سبيل نشر العقيدة السماوية ، عقيدة التوحيد ، أو في سبيل الدفاع عن هذه العقيدة .

ويرادف كلمة الجهاد كلمة : القتال ، والغزو ، والحرب ، والكفاح ، والنضال .

غير أن الجهاد اصطلاح خاص بالدين ، وهو ما يكون لإعلاء كلمة الله ، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، ولكنه آخر الدواء كالكي .

وبعبارة أخرى لإقامة الحق على أنقاض الباطل ولكن بعد ما عيل الصبر واليسر والأناة .

ولقد شرع الجهاد في الإسلام كما شرع في الأديان السماوية السابقة .

• الجهاد في الأديان السماوية السابقة

فقد ورد في التوراة أن سيدنا إبرهيم قاتل الكفار وحاربهم .

كما في سفر التكوين (الإصحاح الرابع عشر) : «أن ملك شنعار وحلفائه الآشوريين قاموا بحرب هجومية على سدوم ، حيث كان يسكن لوط ابن أخي إبراهيم ، وشتتوا أهلها ، واستولوا على جميع أملاكها ، وساقوا أكثر أهلها إلى بلادهم أسارى ، ومعهم لوط ، إلا من نجا منهم إلى الجبل فهرب ملك سدوم ، وبلغ إبراهيم الخبر ، وهو في بلوطة عند الذين كانوا أصحاب عهد معه ، فجمع غلمانه وكانوا نحو ثلاثمائة وثمانية عشر ، وتوجه إلى دان ، وهاجم الشنعاريين وحلفائهم الآشوريين ، وانتصر عليهم ، واسترجع كل الأملاك والأسارى ولوطًا وأملاكه ، فخرج ملك سدوم لاستقباله عند رجوعه ، فقاسم إبراهيم الأموال وأخذ النفوس ، فرفض إبراهيم ذلك كله على أنه جاهد في سبيل الله وهو يرجو رضاء الله ، فدعا له بالبركة : ملكى صادق الذي كان كاهنًا لله تعالى» . اهـ . بتصرف .

ويؤخذ من ذلك أن أبا الأنبياء هو أول من جاهد وقاتل في سبيل الله ، وفي سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان .

وجاء في سفر التثنية (الإصحاح العشرين) شروط الجهاد لموسى وقومه : « إذا خرجت للحرب على عدوك ، ورأيت خيلاً ومراكب قوم أكثر منك ، فلا تخف منهم ، لأن معك الرب إلهك الذي أصعدك من أرض مصر ، وعندما تقربون من الحرب يتقدم الكاهن ويخاطب الشعب . . . » .

إلى أن قال : « وحين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير ويستعبد ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا ، فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، أما الأطفال والبهائم ، وكل ما في المدينة فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك » .

جاهد نبي الله موسى ﷺ في سبيل الدعوة إلى الله ، وإن لم يتم الفتح على يده فقد تم على يد تلميذه « يوشع بن نون » وعلى الجهاد سار أنبياء بني إسرائيل إلى عهد شمويل وطالوت وداود وسليمان ، كما هو مدون في التوراة الحاضرة .

أما النصرانية فقد استعد نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام للقتال ، إذ في الأناجيل الحاضرة إشارات لذلك ، وقد أمر تلاميذه بشراء السيف ، كما في إنجيل لوقا (في الإصحاح الثاني والعشرين) ، ومثله ما جاء في إنجيل متّى (الإصحاح العاشر) : « لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض ، ما جئت لألقي سلامًا ، بل سيفًا ، فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه ، والابنة ضد أمها ، والكنة ضد حماتها ، وعداء الإنسان أهل بيته ، ومن أحب أبًا أو أمًا أكثر مني فلا يستحقني » .

إذا كانت هذه هي وصايا المسيح في الأناجيل الحاضرة ـ والله أعلم بصحتها ـ فماذا يقول القائد للجنود الذين استعدوا لخوض غمار الحرب أكثر من هذا...؟

وربما كان قصر مدة نبي الله عيسى عليه السلام وعدم كثرة أتباعه في عهده ، هو الذي منعه من الدخول في الحرب .

وفي المنطق الإسلامي أن نقول : إن نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام لم يؤمر بالقتال ، ولو أمر بالقتال لهيأ الله له أسباب ذلك ـ مع قصر مدته ـ ولنصره الله على أعدائه ، كما نصر الأنبياء المجاهدين من قبله ، وكما نصر سيدنا محمدًا صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين من بعده .

● شروط الجهاد في الإسلام

تلك هي شروط الجهاد في التوراة ، وأخبار الجهاد عند خليل الله إبراهيم أبي الأنبياء ، وآثاره عند النبي عيسى ، فهل بقي شيء في نفس النصارى يريدون أن ينالوا من الإسلام نيلاً من أجل الجهاد ؟

على أن الجهاد لا يكون في الإسلام إلا على قواعد وشروط وأسباب .

ويمكن حصر تلك الأسباب الأساسية فيما يأتي[1] :

أولاً : الدفاع عن الدين والنفس والأهل والمال ، وهو ما يسمى بالضرورات الست المجموعة في قول اللقاني :

وحفظ دين ثم نفس مال نسب ومثلها عقل وعرض قد وجب

ودليله من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة:١٩٠) .

ثانيًا : حماية الدعوة حتى لا يقف في طريقها معترض يمنع وصولها إلى الناس ، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة:١٩٣) .

---

(١) الإسلام والسلام العالمي ، للإمام حسن البنا .

ثالثًا : تأديب الذين تمردوا على المؤمنين ، وخرجوا على إمامهم ، ونكثوا أيمانهم ، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾

(التوبة:١٢) .

وشروط الجهاد تنحصر فيما رواه مسلم في صحيحه : أن النبي ﷺ كان إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله وبمن معه من المسلمين ، ثم قال : «اغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدًا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم .

ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فسلهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن عليهم بالله تعالى وقاتلهم .

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ، فإذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا »[1].

---

(١) من هذا الحديث الشريف يتبين لك الحق واضحًا جليًّا بين نصوص التوراة والإنجيل ، ونصوص الإسلام ، وتعرف الفرق بين النقيضين : الحق والباطل وأيهما أرحم بالناس .

هكذا وضع الإسلام قواعد الجهاد ، وسار عليها المسلمون من الصدر الأول إلى يومنا هذا .

• أثر الجهاد في انتشار الإسلام

لا شك أن الانتصارات التي أحرزها المسلمون في جهادهم مع المشركين ، واليهود ، والنصارى ، مما أدخل كثيرًا من الكفار في دين الله أفواجًا .

ذلك أنه لما ظهر الإسلام بمكة ، وأسلم عدد قليل من قريش ومواليهم ، بفضل ما اشتهر به النبي ﷺ قبل النبوة من : الصدق ، والأمانة ، والوفاء وكل الصفات الحميدة ، ثم بفضل أصدقائه الذين سبقوا إلى هذا الدين بفضل الصداقة ، وكلهم لم يبلغوا ثلاثمائة من جميع من أسلموا طوال ثلاثة عشر عامًا قضاها النبي ﷺ في الدعوة إلى الإسلام بالطرق السلمية بل كان يقابل بكل جفاء وأذى ويتذرع بالحلم والصبر .

ولما أسلم أهل يثرب (المدينة) من الأوس والخزرج ، وسموا بالأنصار ، هاجر إليهم النبي ﷺ وأصحابه المسلمون .

ثم أسلم قليل من يهود المدينة ، وعلى رأسهم عبد الله بن سلام ومخيرق ، وأسلم قليل من نصارى اليمن .

وقامت الحرب بين المسلمين وغيرهم ، وانتصر المسلمون في جميعها ، ثم كان فتح مكة للمسلمين الذين دخلوها منتصرين ظافرين ، بعد أن أخرجوا منها شبه مطرودين ، فدخلت قريش بأسرها في الإسلام ، وهم سادة قبائل العرب أجمع بفضل سدانة الكعبة .

وحينذاك رأى الأعراب ـ في سائر أنحاء الجزيرة العربية ـ أن الإسلام قد عمهم وغلب عليهم ، ولم يكن لهم بد من الاعتراف بالواقع ، والدخول في الدين الجديد ، مخلصين أو مداهنين ، فأخذت كل قبيلة ترسل وفدًا من رؤساءها إلى مبايعة النبي ﷺ والدخول في الإسلام ، وشرعوا يدخلون أفواجًا ، وكان ذلك في السنة التاسعة من الهجرة ، فسمى « عام الوفود » .

● **رؤساء الوفود**

لقد وفد على النبي ﷺ طائفة ممن قد أسلموا على أيدي الدعاة المبعوثين إلى بلادهم ، ثم جاءوا يتعلمون الإسلام على يد النبي ﷺ ومنهم من لازموا النبي يومًا أو أسبوعًا أو شهرًا ، ثم عاد إلى بلاده يدعو الناس إلى الإسلام ، وطائفة أخرى أتوا النبي ﷺ يطلبون منه شروطًا قبل دخولهم في الإسلام ، فأبى النبي ﷺ لبعضهم ، وقبل من بعضهم شروطهم .

١- ومن أولئك الوفود : وفد ثقيف الذين كان على رأسهم عبد ياليل ابن عمرو ، ولما قدموا على النبي ﷺ ضرب لهم قبة في ناحية مسجده ثم طلبوا منه أشياء أباها عليهم ، وأشياء أعطاهم إياها ، ومما طلبوا أن يعافيهم النبي ﷺ من الصلاة فقال : « لا خير في دين لا صلاة فيه » .

٢- ووفد على رسول الله ﷺ وفد ضمام بن ثعلبة ـ من بني سعد ـ ولما دخل المسجد والرسول ﷺ بين أصحابه قال : أيكم ابن عبد المطلب ؟

فقال عليه الصلاة والسلام : أنا ابن عبد المطلب .

قال : أمحمد ؟

قال : نعم .

قال : يا ابن عبد المطلب . . إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة ، فلا تجدن عليَّ في نفسك .

قال : لا أجد في نفسي ، فسل عما بدا لك .

قال : أنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك : آلله بعثك إلينا رسولاً ؟!

قال : اللهم نعم .

قال : أنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك : آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئًا ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟

قال : اللهم نعم .

قال : فأنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك : آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس ؟

قال : اللهم نعم .

ثم ذكر الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ، حتى إذا فرغ قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله ، وسأؤدي الفرائض ، وأجتنب ما نهيتني عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص . ثم خرج حتى أتى قومه فما أمسى ذلك اليوم إلا وقد أسلموا جميعًا .

٣- ووفد على رسول الله ﷺ وفد هذيل من ـ بني سعد ـ وهو الذي قال : قدمت على رسول الله ﷺ في نفر من قومي فبايعناه ، ثم انصرفنا إلى رحالنا وقد خلفنا أصغرنا ، فبعث رسول الله ﷺ في طلبنا ، فأتى بنا إليه ، فتقدم صاحبنا فبايعه على الإسلام ، فقلنا : يا رسول الله ، إنه أصغرنا وخادمنا ، فقال : « أصغر القوم خادمهم ، بارك الله عليك » .

فكان ـ والله ـ خيرنا وأقرأنا بدعاء رسول الله ثم أمَّره علينا ، فكان يؤمنا فرجعنا إلى قومنا فرزقهم الله الإسلام .

٤- ووفد على رسول الله ﷺ وفد صداء ـ من عرب اليمن ـ وكانوا خمسة عشر رجلاً ، فبايعوه على الإسلام ، ثم رجعوا إلى قومهم وفشا فيهم الإسلام .

٥- وقدم وفد صرد بن عبد الله الأزدي ـ في وفد ـ فأسلموا فأمَّره النبي عليه الصلاة والسلام على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من أهل الشرك ـ من قبائل اليمن ـ ففعل ، وقاتل قبائل العرب وانتصر عليهم .

٦- وقدم وفد دوس إلى الحج ، وسمع الطفيل الدوسي القرآن من النبي ﷺ حين كان يصلي عند الكعبة ، فمكث حتى فرغ فتبعه إلى البيت ، فطلب من النبي ﷺ أن يعرض عليه الإسلام ، فأسلم ، ثم رجع إلى قومه بخبر الإسلام ، فأبطأ عليه قومه ، فجاء النبي ﷺ ، فقال : يا نبي الله ، قد غلبني

على دوس الزنا ، فادع الله عليهم ، فقال : «اللهم اهد دوسًا» ثم قال : «ارجع إلى قومك فادعهم إلى الله وارفق بهم» ، فرجع فلم يزل يدعوهم حتى قدم على النبي بخير ثمانين بيتًا من دوس .

٧- جاء مالك بن الحويرث مع قومه ـ من بني ليث ـ فأقاموا عند النبي ﷺ عشرين ليلة يتعلمون الإسلام ، فلما رأى النبي ﷺ شوقهم إلى أهليهم ، قال : «ارجعوا إلى أهليكم فكونوا فيهم وعلموهم ، ومروهم ، وصلوا كما رأيتموني أصلي ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ، وليؤمكم أكبركم»[1] .

• ما يُستفاد من إسلام الوفود

يُستفاد من إسلام الوفود وسرعة رجوعهم إلى أهليهم لنشر دعوة الإسلام فيهم : أن النبي ﷺ لم يكن يحبس الوفود طويلاً حتى يحشو أدمغتهم بحذافير الشريعة ، بل كان يكتفي بأن يعلمهم قواعد الإسلام والطهارة وبعض السور من القرآن ، ثم يطلق سراحهم إلى أهليهم ليدعو غيرهم .

هذا الذي يتفق مع التيسير في الدعوة والتبشير بها ، وعدم التنفير عنها .

وقد درج كثير من الدعاة على أن يستعملوا الأساليب الغليظة ، والعبارات الجافة الشديدة لحديث العهد بالإسلام ، حتى يخاف وينفر منه ، وهذا لا يجوز ، بل يجب عليهم أن ييسروا ولا يعسروا ، وأن يصبروا على جفاء بعض الناس المدعوين الذين في طباعهم الغلظة حتى يلينوا من طباعهم وجفوتهم ، وحتى يكونوا مثلاً أعلى في الإسلام .

• أثر مكارم الأخلاق في انتشار الإسلام

١- جاء في كتب السيرة أن رسول الله ﷺ غزا غزوة حنين ، وكان صفوان ابن أمية لا يزال كافرًا ، فأعطاه النبي ﷺ مائة من النعم ، ثم مائة ، ثم مائة .

---

(١) متفق عليه ، ورواه الإمام أحمد والنسائي عن مالك بن الحويرث .

وقال صفوان : والله ما سمحت نفس أحد بمثل هذا العطاء إلا النبي ﷺ ، ولقد أعطاني ما أعطاني وأنه لأبغض الناس إليَّ ، فما زال يعطيني حتى أنه لأحب الخلق إليَّ . . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله .

٢- جاء زيد بن سعنة اليهودي قبل إسلامه يتقاضى النبي عليه الصلاة السلام دينًا عليه ، فجذب ثوبه عن منكبه وأخذ بمجامع ثيابه . وأغلظ له ، ثم قال : إنكم يا بني عبد المطلب مطل ، فانتهره عمر وشدد له في القول والنبي ﷺ يبتسم ، فقال رسول الله : « أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر ، تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي » ، ثم قال : « لقد بقي من أجله ثلاث » ، وأمر عمر أن يقضيه ما له ويزيده عشرين صاعًا لما روعه ، فكان سبب إسلامه ، وقال : ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ ، إلا اثنتين لم أخبرهما : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل إلا حلمًا ، فاختبرته بهذا ، فوجدته كما وصف .

٣- تصدى للنبي غورث بن الحارث ليفتك به ، ورسول الله عليه الصلاة والسلام مستند تحت شجرة وحده قائلاً ـ والناس قائلون في غزوة ذات الرقاع ـ ولم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم والسيف صلتا في يده ، فقال : من يمنعك مني ؟ فقال : الله . فسقط السيف من يده ، فأخذه النبي ﷺ وقال : من يمنعك مني؟ قال : كن خير آخذ ـ فتركه وعفا عنه ، فجاء إلى قومه ، فقال : جئتكم من عند خير الناس ، فأسلم ودعا قومه إلى الإسلام .

● بقاء فريضة الجهاد إلى قيام الساعة

جاء في الأثر المروي عن أحد السلف : « الجهاد ماض منذ بعث الله نبيه إلى أن يقاتل آخر أمته الدجال ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل » .

وعن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه قال : « ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل » .

غير أن الجهاد نوعان : جهاد فيه قتال ، وجهاد ليس فيه قتال ، أما الجهاد الذي فيه قتال فهو : ما تقدم وله شروطه وأسبابه وقواعده ، فلا يتم إلا بقيادة أمير بويع على طاعة الله ورسوله .

أما الجهاد الذي ليس فيه قتال فهو : ما يستطيعه كل إنسان دون الرجوع فيه إلى أمير ، وهو أيضًا قسمان :

الجهاد بالنفس ، والجهاد بالمال ، كما هو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (الصف: ١٠، ١١) .

أما الجهاد بالمال فهو بذله للمجاهدين في سبيل الله ، بشراء الأسلحة لهم وتقديم كل ما يحتاجون إليه من لوازم الجهاد ، وإيقاف الرباط في ثغر من الثغور ، أو بذله لبناء المساجد التي يذكر فيه اسم الله ، وتقام فيها الصلاة ، أو بذله لبناء المعاهد والمدارس التي يتعلم فيها أمور الدين والدنيا ، ونحو ذلك .

أما الجهاد بالنفس ، فكما تقدم ، أو مجاهدة النفس والهوى والشيطان ، لحديث : « المجاهد من جاهد هواه »[1] .

ولحديث : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر : جهاد النفس » .

ولكن المجاهدين من هذا الطراز إنما يدخلون في عداد القاعدين من المؤمنين كما في قوله تعالى : ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ (النساء: ٩٥).

---

(١) ولحديث : « المجاهد من جاهد نفسه في الله » رواه الترمذي وابن حبان عن فضالة ابن عبيد .

ويقول معروف الكرخي ـ أحد أئمة الصوفية ـ : «ليس بمسلم من اهتدى في نفسه ، وقنع بذلك ، ولم يجاهد لينقل هداه إلى إنسان آخر في الحياة ، والولي الكامل من قام بواجبه حيال الأمة الإسلامية : مصلحًا أو مرشدًا».

ويقول السيد رشيد رضا في إحدى مقالاته : «إن في الصلاة لراحة ، وإن في العلم والذكر للذة ، ولكن ثوابهما قاصر على صاحبهما ، وثواب الجهاد متعد لكل من ينتفع به ، والإنسان الكامل من يجمع بينهما» .

● فريضة بذل المال في سبيل الدعوة

المال قوام كل دعوة إلى فكرة أو عقيدة أو ديانة يدعى إليها الناس ، وكل دعوة إلى شيء يحمل عليه الجمهور ولم تكن تساند بالأموال فإنها لا تروج ولا يستجاب لها كما قال الشاعر :

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مال
ومن لا عنده مال فعنه الناس قد مالوا

فإن بذل الأموال من أجل نشر الدعوة أيسر طريقة سلمية ، وأقرب وسيلة فعالة لنشر تلك الدعوة ، ألا ترى النظريات الفلسفية أو السياسية أو الثقافية ، والأفكار والآراء والمذاهب كلها تروج بين الأفراد والجماعات ببذل الأموال الطائلة من أصحاب تلك النظريات والأفكار ، ومن حملة ألويتها إلى الناس .

● بذل النصارى لديانتهم

إن الديانة النصرانية المعروفة بقوة انتشارها وتغلغلها في سائر الأوساط لم تقم إلا على بذل الأموال لمن يدعى إليها ، فإن تلاميذ المسيح الأولين ، الذين أقاموا بناء الدعوة النصرانية ونشروها في العالم إنما كانوا يبذلون أقصى ما لديهم من الأموال في سبيل نشرها بشتى الوسائل .

وقد جاء نص ذلك في سفر الأعمال (في الإصحاح الرابع) في قوله : «وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، ولم يكن أحد يقول إن شيئًا من أمواله له ، بل كان عندهم كل شيء مشتركًا . .

وإذ لم يكن فيهم أحد محتاجًا ، لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ، ويضعونها عند أرجل الرسل ، فكان يوزع على كل أحد كما يكون له احتياج .

ويوسف الذي دعى من الرسل برنابا الذي يترجم «ابن الوعظ» وهو لاوي قبرصي الجنس ، إذ كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعها عند أرجل الرسل» .

«قلت» : وكان جزاء الذي باع ملكه وأخذ من الثمن شيئًا لنفسه كان جزاؤه الموت (كما في الإصحاح الخامس من السفر المذكور) : «ورجل اسمه حنانيا وامرأته سفيرة باع ملكا واختلس من الثمن ، وامرأته لها خبر ذلك ، وأتى بجزء ووضعه عند أرجل الرسل : فقال بطرس : يا حنانيا ، لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس ، وتختلس من ثمن الحقل ، أليس هو باق كما يبقى لك؟ ولما بيع ، ألم يكن في سلطانك ، فما بالك وضعت في قلبك هذا الأمر ، أنت لم تكذب على الناس ، بل على الله ، فلما سمع حنانيا هذا الكلام وقع ومات ، وصار خوف عظيم على جميع الذين سمعوا بذلك» .

«قلت» : ومن ثَمَّ ظل النصارى إلى اليوم يبذلون ولا يبخلون بما يملكون ، وكثيرًا ما يوصون بجميع أموالهم ، أو بنصفها ، أو ثلثها لكنيستهم ، خصوصًا إذا لم يتركوا وارثًا يرثهم .

لذلك استطاعت الهيئات التبشيرية في كل قطر ، وفي كل بلد ، أن يؤسسوا المؤسسات الخيرية العظيمة لمساندة ديانتهم .

● الإنفاق في سبيل الإسلام

ولقد جعل الله الإنفاق في سبيل الدعوة إليه فريضة من فرائضه ، ووعد من أنفق في سبيله ثوابًا ، وأنذر من أمسك عقابًا في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (البقرة:٢٥٤) .

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة:١٩٥) .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (التوبة:٣٤،٣٥) .

ولقد قرر القرآن الكريم أن الدعوة لا تقوم إلا بالجهاد بالمال والنفس ، فحث على ذلك في كثير من الآيات ، منها قوله : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة:٨٨،٨٩) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الصف:١٠،١١) .

● إنفاق الرعيل الأول من الصحابة

امتثالاً لهذه الأوامر الإلهية وضع الرعيل الأول من الصحابة جميع أموالهم تحت تصرف صاحب الدعوة سيدنا محمد ﷺ ، فأخبار سادتنا أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأمثالهم معروفة ومشهورة في التاريخ .

وقد أنفق طلحة أمواله في غزوة حنين ، حتى وصف بـ« الجواد الفياض » ، ولما ندب رسول الله ﷺ إلى الصدقات في غزوة تبوك الموسومة بـ« جيش العسرة » جاء الصحابة بأموالهم ، وأول من جاء بماله منهم سيدنا أبو بكر الصديق ، جاء بماله كله ، فكان أربعين ألف درهم ، فقال له رسول الله : « هل أبقيت لأهلك شيئًا » ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، وجاء سيدنا عمر بنصف

ماله فسأله : «هل أبقيت شيئًا»؟ قال عمر : نصف مالي ، وجاء عبد الرحمن بمائتي أوقية ، وجهز عثمان ثلث الجيش ، وتصدق عاصم بسبعين وسقا من تمر ، ولم يبق أحد من الصحابة له مال إلا أنفقه كله أو بعضه ، أو ثلثه .

ثم سار المسلمون على هذه السيرة في مختلف الأعصار والأمصار ، وأنفقوا أموالهم في سبيل الدعوة حتى استقامت وانتشرت .

أما في الرباط أو في بناء المساجد أو المدارس والزوايا ، وإيقاف الأوقاف والحبس لتكون موارد ثابتة تعتمد عليها الدعوة الإسلامية ، فأخبار «نظام الملك» في تأسيس المدارس النظامية مدونة في التاريخ ، وأخبار «صلاح الدين الأيوبي» كذلك مشهورة في مصر وسوريا ، فإن ملوك المسلمين السابقين ، ورؤساءهم الأولين ، وأثرياءهم الماضين ، قد أنفقوا أموالهم في سبيل تثبيت دعائم الإسلام في مختلف المجالات .

ولولا ما أنفقوا لما بلغت الدعوة حيث بلغت ، ولما بقيت المساجد عامرة في كل بلد من البلاد الإسلامية حتى اليوم ، ولما وجدت الأوقاف الإسلامية التي عظم شأنها حتى خصصت لها وزارة خاصة في كل دولة إسلامية أو عربية .

● الدعوة بحاجة إلى مزيد من البذل

ومع هذا كله ، فإن الدعوة الإسلامية في هذا العصر لا تزال بحاجة إلى مزيد من البذل الكثير من أثرياء المسلمين الذين وسع الله عليهم ، فإنهم وإن كانوا ينفقون ، فإن ما ينفقونه أقل مما يجب عليهم بالقياس إلى ما ينفقه أثرياء اليهود والنصارى لنصرة عقيدتهم وديانتهم في أمريكا وأوربا ، حيث وضع أصحاب الملايين إمكاناتهم تحت تصرف الدعاية لعقيدتهم وديانتهم .

● دعوة الملوك ورؤساء الدول إلى الإسلام

لقد كان نبي الله إبراهيم أول من واجه الملوك الجبابرة ، ولكن بطريقة غير مباشرة ، ثم جاء نبي الله موسى ، وكان يواجه فرعون بالخوارق والمعجزات .

ولما جاء النبي محمد ﷺ واجه ملوك زمانه جميعًا ، ولم يقتصر على واحد منهم ، واخترع أسلوبًا جديدًا في الدعوة لم يسبق إليه ، ذلك هو : دعوة الملوك العظام بالمراسلة والسفارة ، فبدأ بأعظمهم شأنًا وأبهرهم مكانًا وهو كسرى فارس ، ثم بقيصر الروم ، وكانت رسائله إليهم تنطق بلهجات قوية رفيعة في كلمات وجيزة رهيبة .

دعا النبي ﷺ هذين الملكين ، وبلاد العرب كلها خاضعة لهما ، قسم خاضع لنفوذ فارس تحت الملوك المناذرة في الحيرة ، وقسم خاضع لسيطرة الروم تحت الملوك الغساسنة في الشام .

لم يخش النبي ﷺ ما يترتب على هذا الإقدام الجريء لو فشلت دعوته ، ولكنه متيقن بنجاح دعوته ، لأن الله الذي أرسله قد وعده بالنصر .

وفرعون الذي بعث الله إليه موسى عليه السلام ليس أعلى شأنًا من كسرى فارس ، ولا قيصر الروم ، لأنهما على رأس بلاد العرب وذنبها .

ولكن فرعون الذي بعث الله إليه موسى لم يتحكم على مدين التي لا تبعد عن مصر أكثر من مسافة أسبوعين سيرًا على الأقدام .

ومع ذلك اعتذر موسى لربه ، وقال : ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ (الشعراء:١٢-١٤) .

وحين أُرْسِل عيسى عليه السلام ، كانت بلاد فلسطين تحت حكم قيصر الروم ولما سأله اليهود عن طاعة قيصر ، قال لهم (كما يقول كتابهم) : « أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » .

هذا قول الخائف الذي يرهب جانب الملك العظيم الشأن يقسم العالم قسمين : قسم لله ، وقسم لقيصر ، إن صحت نسبه ذلك إلى عيسى عليه السلام[1] .

---

(١) إن الرسالات كلها جاءت لتقول للعالم : إن الملك لله وحده ، وقد حدث أن مسيلمة الكذاب أرسل إلى رسول الله ﷺ يقول : أما بعد ، فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك . فرد عليه سيدنا رسول الله ﷺ بقوله : « أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » . وذلك عهدنا بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

فيأتي سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ويجترئ على كسرى وقيصر ويبعث إليهم الرسائل ليدعوهم إلى عبادة الله الذي له ملك السموات والأرض .

ولقد أخبر النبي ﷺ قومه في غزوة الأحزاب حين أخذ المعول من سلمان الفارسي وضرب به الحجر فبرقت منها بارقة فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون ، ثم ضرب فبرقت فكبر وكبروا ، ثم ضرب فبرقت فكبر وكبروا ، فقال ﷺ : « أضاء لي في الأرض قصور الحيرة ومدائن كسرى . كأنياب الكلاب ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، وأضاء لي في الثانية قصور الحمر من أرض الروم ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها » .

بهذا تيقن رسول الله ﷺ أنه سيغلب أولئك الملوك في عقر ديارهم ويقضي على آثارهم ، لذلك بدأ يراسلهم .

● **رسائل النبي ﷺ - رسالته إلى هرقل ملك الروم**

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

من محمد رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد . .

فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾(آل عمران:٦٤) .

● **كتابه إلى كسرى ملك فارس**

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

من محمد رسول الله ﷺ إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله . .

أدعوك بدعاية الإسلام ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس»..

● كتابه إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد . .

فإني أدعوك بدعاية الإسلام : أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾

(آل عمران:٦٤) إلخ .

● كتابه إلى النجاشي ملك الحبشة

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

من محمد رسول الله ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة . . سلم أنت .

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، خلقه الله من روحه ، ونفخه ، كما خلق آدم بيده .

إني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فإني رسول الله ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى» .

• ما يُستفاد من رسائل الملوك :

يلاحظ القارئ اختلاف عبارات الرسائل إلى أهل الكتاب وإلى المجوس ، كما يلاحظ أن عبارات رسالة النجاشي ألطف وأخف لما سبق به من عطفه على المسلمين في بلاده ، وقد قابل بعض هؤلاء الملوك هـذه الرسائل بالاحترام ، كملك الحبشة ، وعظيم مصر ، وأمير البحرين . واستكبر البعض الآخر ، كعظيم الفرس الذي مزق رسالة النبي ﷺ وبعث إلى عامله من يأتيه بهذا العربي الذي اجترأ عليه ، ولما أتوا النبي ﷺ قال لهم : « إن كسرى قد قُتِل ، وإن الإسلام سيبلغ ما بلغ كسرى ، وينتهي إلى الخف والحافر » .

ولم يمض على هذه الحادثة ربع قرن من الزمان ، حتى سقطت هذه الدول كلها تحت سنابك خيل المسلمين . ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ (الأنعام:١١٥) .

و ﴿ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (الزمر:٧١) .

* * *